المحاضرة السابعة

والحقيقة أن مقدونيا كانت بلداً متخلفاً بالقياس إلى أثينا أو كورنثا مثلاً، وكان على ملوكها أن يتعاملوا مع أرستقراطية من الزعماء الجبليين البعيدين كل البعد عن الجو الثقافي المتطور في أثينا، إلا أنها قد غيرت مجرى تاريخ الإغريق بفضل اجتماع عدد من العوامل الملائمة. من تلك العوامل ظهور أمير كفؤ وطموح فيها عام ٣٥٩ ق.م، كان من بين طموحاته أن يُعترف بمقدونيا كبلد إغريقي، وهو فيليب الثاني ولي عهد المملكة.

تقع مملكة مقدونيا بين ترافيا و تساليا ، سكانها جبليون، وهم أقلية بالنسبة إلى الدول اليونانية المجاورة .

وعندما ارتقى فيليب الثاني عرش مقدونيا، رأى أن ينتهز حالة بلاد الإغريق فيوحدها بزعامة مقدونيا سياسيًا وحربيًا ويقوم الإغريق في حرب قومية ضد أعدائهم القدماء الفرس، وكانوا يسيطرون على إغريق آسيا الصغرى ويهددون سلامة بلاد الإغريق، فيصيب فيليب بذلك هدفين: وأحدهما هو خضوع بلاد الإغريق له وتأييدها إياه لأنه سيصبح قائد حرب الانتقام من الفرس، والآخر هو القضاء على الخطر الفارسي.

وقد كانت الظروف كلها في صالح فيليبس، لأن الدول الإغريقية كانت منهكة إثر صراعها الطويل، وفارس كانت قد مرت بسلسلة من الثورات تركتها في حالة ضعف. كما أن مقدونيا كانت غنية بالذهب فكان بمقدورها أن تمول جيشاً قوياً وفعالاً تدين فعاليته بالكثير لجهود فيليبس الشخصية.

كما أن مقدونيا كانت غنية بالذهب فكان بمقدورها أن تمول جيشاً قوياً وفعالاً تدين فعاليته بالكثير لجهود فيليبس الشخصية. وكان فيليبس قد فكر ملياً في الأساليب العسكرية الإغريقية عندما كان في طيبة أثناء شبابه، وتوصل إلى ابتكار تكوين وتكتيك جديد للكتيبة المقاتلة .

وهذا الابتكار يسمى (الهبليت)وهو الكتيبة المؤلفة من عشرة صفوف من المشاة المسلحين برماح طويلة. كانت رماح هذه الكتيبة أطول بمرتين من الرماح العادية، وكانت المسافة بين الرماحين أكبر منها في تشكيل الهبليت، بحيث تبرز رماح الذين في المؤخرة من المقدمة بين الصفوف الأمامية، وقد شكل هذا الترتيب سلاحاً رهيباً مكوناً من الرماح المتراصة التي تشبه أشواك القنفذ. وفوق هذا كان يدعمها أيضاً خيالة مدرعون وسلاح حصار مكون من أسلحة ثقيلة مثل المنجنيق.

وقد أدرك الإغريق أغراض فيليب وانقسموا إزاءها قسمين غير متعادلين، يؤيدها أقلهم ويعارضها أغلبهم وكانوا يرون أن المسألة هي حرية الإغريق، وهذه كانوا لا يفرقونها عن استقلال المدن، وأنه يتهدد حريتهم العزيزة عليهم خطران كانت مقدونيا أقربهما وبلاد الفرس أبعدهما فكان يجب القضاء على الخطر المباشر بأي ثمن. ولذلك تحالفت أثينا وبويوتيا لدفع هذا الخطر الداهم، ولكن فيليب لعب دورا دبلوماسيا واستراتيجيا لامعا ، ووضع خططا حربية معروفة وأنزل بالإغريق في عام ٣٣٨ هزيمة ساحقة في موقعة خايرونيا. فانفتحت الحدود أمام جيشه إلى كل اليونان .

كان فيليب المقدوني قد حضر جيشا بعد معركة خايرونيا بقيادة فارس معروف ، لكن أحد قادته قتله فتولى القيادة ابنه الإسكندر(٣٥٦ - ٣٢٣ ق م).
كان شابا صغيرا عندما بدأ الزحف بجيشه . وسعى الإسكندر كي يجعل من نفسه سيد العالم ، خلال السنوات الإحدى عشر التالية ، كما كانت لديه أفكار ثقافية وحضارية يريد تطبيقها على العالم كله. فبدأ بمهاجمة الفرس، فاستولى على فينيقيا وهو بذلك قد أزال من طريقه الخطر الرئيسي الذي كان يتهدده، لأن سفن فينيقيا وقبرص ـ وكانت أفضل جزء في الأسطول الفارسي ـ انضمت عندئذ إلى الإسكندر.

وزحف الاسكندر إلى سورية و هزم الملك داريوس الثالث في معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق م ثم احتل مدينة صور بعد حصار دام سبعة أشهر.

غير أن اسبرطة كانت لا زالت تعمل مجدًا في إثارة الحرب ضد الإسكندر ولكن سرعان ما بسط الاسكندر نفوذه على بحر ايجا. وإلى جانب ذلك كله كان يوجد اعتبار سياسي له خطره. فقد كان الإسكندر على وشك تكوين إمبراطورية إغريقية أسيوية. وكان لا يمكن تصور قيام هذه الإمبراطورية دون أن يكون بحر أيجة بمثابة قطب الرحي فيها، كما لا يمكن السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط دون السيطرة أولاً على مصر.

اتجه بعد ذلك بجيشه نحو بلاد مابين النهرين ليهزم داريوس الثالث ثانية في معركة أربيلا عام ٣٣١ ق م ، واستمر بتوغله شرقا إلى أن وصل الهند رغم تذمر جنوده . وبعد أن وصل إلى نهر السند وافق على العودة إلى الوطن فوصل بلاد مابين النهرين ثانية فأصيب هناك بالحمى ومات في مدينة بابل وعمره ٣٣ سنة .

لقد كان الاسكندر قبل كل شيء محارباً وفاتحاً، ولكنه كان أكثر من هذا بكثير، فقد كان على دراية كبيرة بالعلم والمعرفة والفلسفة فقد تتلمذ على يد أرسطو. وكان بلا شك قوة حاسمة ليس فقط في تاريخ اليونان وحدها بل في تاريخ العالم أيضاً، منذ عام ٣٣٤ ق.م.

لقد أسس الاسكندر مدناً كثيرة كانت تسمى على اسمه في العادة، ومازالت هناك مدن عديدة تحمل اسم الإسكندرية، عدا عن أماكن أخرى تحمل اسمه بصورة مقنعة. كما أنه مزج الإغريق والآسيويين في جيشه بحيث راح كل منهم يتعلم من الآخر، وصار هذا الجيش قوة أكثر عالمية. لقد جند الشباب من نبلاء الفرس، كما ترأس ذات مرة زواجاً جماعياً لتسعة آلاف من جنوده على نساء شرقيات، وترك الاسكندر الإداريين السابقين في البلاط الفارسي في مناصبهم من أجل إدارة الأراضي المفتوحة .

لقد كان الإطاحة بأكبر إمبراطورية في عصره وإنهاء عصر المدن الإغريقية في أوروبا وآسيا معاً أعمالاً غيرت شكل العالم، ولو أن تأثيرها الكامل لم يتضح على الفور. وكانت هناك نتائج إيجابية كثيرة لم تظهر إلا بعد موته، عندما برزت آثار الأفكار والمعايير الإغريقية التي نشرها في أصقاع الأرض في البلاد الإغريقية وغير الإغريقية على السواء.

ولهذا السبب صيغت كلمة هيلنستى لوصف العصر الذي تلا موته والمنطقة التي غطتها الإمبراطورية السابقة أي بالتقريب المنطقة الواقعة بين بحر الأدرياتيك ومصر في الغرب وجبال أفغانستان في الشرق، أما إمبراطوريته نفسها فلم تبق متماسكة لزمن طويل، ولم يخلف الاسكندر وريثاً له سرعان ما راح قواده يتنازعون على الغنائم.

وفى نهاية الحديث عن الأسرة المقدونية نستطيع أن نقول أنهم نجحوا في القضاء على استقلال مدن اليونان وإنهاء حقبة من تاريخ البشرية هي حقبة دولة المدينة.

ويكفي هذا الأمر وحده لكي يضمن لملوك مقدونيا مكاناً في التاريخ.

.....